

## التاريخ والمستقبل

د. محمد صابر عرب

ليس من قبيل المصادفة أن تُعنى الأمم بتاريخها القومي والوطني، سواء في برامج التعليم بمختلف مستوياته؛ أو في مجالات المعرفة بمختلف تخصصاتها. ولعل الأمم الأوربية كانت أسبق في ذلك، منذ بدايات تكوين الدول القومية الحديثة مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان التاريخ القومي بمثابة أحد أركان البنية الثقافية والمعرفية، سواء في المدارس والجامعات أو خارجهما. فلم تكن العناية بالمعارف التاريخية ترفاً ثقافياً؛ وإنما كانت بمثابة أحد الوسائل المهمة لبعث ثقافة المواطنة، بما في ذلك الاعتزاز والفخر بما قدمه الآباء والأجداد تقديراً لأوطان تستحق أن نعرف تاريخها، لكي نباهي الأمم والشعوب الأخرى مجداً وفخراً، هكذا فعلت الأمة الألمانية والإنجليزية والفرنسية... إلخ، إضافة إلى أن التاريخ يقدم خبرة معرفية وإنسانية تعين المواطن أياً كان عمله على التعرف على مكنن الخطأ والصواب، وتساعده على أن يتسلح بخبرات تاريخية هائلة تمكنه من اختيار قراراته بطريقة صائبة.

الملاحظ أن العناية بالتاريخ في عالمنا العربي قد تراجعت بشكل ملحوظ، سواء في المدارس والجامعات؛ أو في المؤسسات الثقافية والإعلامية، وأصبح ينطبق عليه المقولة الشهيرة: "العلم به لا يفيد والجهل به لا يضر".

وفي كثير من الحالات اقتصرتنا المناهج التاريخية على العناية بالتاريخ  
القطري بمعناه الضيق، وغاب الاهتمام بالتاريخ العربي القومي، مع أن في  
تاريخنا القومي ما يستوجب الاهتمام والفخر، فكل الأعمال العربية الكبيرة تمت  
في إطار العمل القومي ابتداءً بالعصرين الأموي والعباسي، وكل الهزائم  
والانكسارات التي ألمت بعالمنا العربي وقعت حينما تباعد العرب وانكفأ كل قطر  
على ذاته، وخصوصاً في تاريخنا المعاصر؛ الذي ألمت به الهزائم من كل صوب.  
المناهج الدراسية التي تتناول تاريخ القضية الفلسطينية على المثال أوشكت  
على أن تتخلص من تعريف أبنائنا بهذه المأساة التاريخية، وإذا تم تناولها في  
بعض الأقطار فغالباً لا تُعنى بأسباب الهزيمة على المستويين السياسي والعسكري،  
ولا تقدم رؤية للمستقبل في سبيل استعادة الحقوق العربية، بينما الدرس المستفاد  
من القضية برمتها أن العرب لم ينسقوا ولم يتعاونوا بما يتناسب وأهمية القضية،  
وبينما العالم برمته يمضي نحو مزيد من التعاون والشراكة والتنسيق من خلال  
تجمعات سياسية واقتصادية وأمنية تستهدف إسعاد البشر وحل مشكلاتهم  
والارتقاء بمستواهم الاجتماعي والثقافي، ولعل ما وصل إليه الاتحاد الأوروبي يعد  
نموذجاً عملياً، لكن ارتضى العرب أن يضاعفوا من قطريتهم، بينما كان أمامهم  
فرصة تاريخية على المستويات الاقتصادية والسياسية كافة. فلقد كانت الجامعة  
العربية أسبق كثيراً من أي تجمعات أوربية، وكانت هناك مشروعات اقتصادية  
وسياسية وتعليمية كان بالإمكان أن تحيل العرب إلى أمة تحتل مكانتها اللانقطة بين  
الأمم، لكننا استبدلنا أمراضنا بمصالحنا الحقيقية، فلا توجد أمة في العالم المعاصر

خلّفت وراءها كل هذا التاريخ المشترك، وأدارت ظهرها إليه بقدر ما فعل العرب، ولا توجد أمة قد تملك كل المقومات الحقيقية لعمل نهضة حقيقية بقدر ما أتيح للعرب من موارد طبيعية أفاء الله بها عليهم، وموقع جغرافي يتوسط العالم، وقوى بشرية كانت في حاجة إلى استثمارها وتنميتها، ورغم ذلك فقد اكتفينا بمشروعاتنا الضيقة، ورؤيتنا القطرية الصغيرة وسط عالم يمضي نحو التعاون الذي يستهدف إعمار الأرض وشيوع المعارف لإسعاد الإنسان.

لقد أسقطنا من حساباتنا تاريخاً حافلاً وثقافة هائلة ومصالح مشتركة، واستبدلنا كل ذلك بمصالحنا الضيقة، لدرجة أننا رحنا نتعامل مع قضايانا بمعزل عن كل هذا الرصيد الحضاري والإنساني.

المتابع للمشهد العربي من الخليج على المحيط يلحظ سباقاً هائلاً للتخلص من التاريخ المشترك، وكأنه حمل ثقيل نود أن نلقيه وراء ظهورنا، وتعقدت علاقاتنا التي اكتنفتها حسابات وصراعات شخصية انعكست على المصالح العربية، لدرجة أننا لم نستطع أن ندير أزماتنا بمنطق، بل رحنا نكيد لبعضنا، وأحلنا الجامعة العربية - وكانت أملنا الوحيد- إلى ساحة من الصراعات والتنافسات والعنتريات؛ التي توشك على ضياع الجامعة العربية، وتبديد كل آمالنا في التعاون، والخاسر في كل الحالات هي الشعوب العربية التي لا حول لها ولا قوة، بل ولم يبق من مظاهر العروبة إلا لغتنا التي تواجه تحديات هائلة وسط زحام وصخب هائلين، لدرجة أن إحدى الدراسات الأكاديمية المتخصصة قد توقعت

اندثار اللغة العربية مع نهاية القرن الحادي والعشرين كغيرها من عشرات اللغات العالمية التي تبددت.

ما أوجنا إلى أن نتخلص مما يمكن تسميته بالتاريخ العبي، ونسترجع تاريخنا الحقيقي من خلال استعادة ذاتنا ثقافة وعروبة، لكي نرى المستقبل ونحن واثقون من أننا على أرض صلبة لكي ننمي مجتمعاتنا، ونعبي مواردنا نحو إيجاد واقع يستهدف الإنسان العربي في كل مكان رغبة في الانتماء وحرصاً على تعاون مشترك، شريطة أن تتوفر الظروف السياسية والاجتماعية القادرة على الانطلاق نحو المستقبل. لعنا نستطيع أن نستعيد ما فقد.

د. محمد صابر عرب

[chairman@darelkotob.go](mailto:chairman@darelkotob.go)

Email: [v.eg](mailto:v.eg)